



الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام) أدوار ومواقف

□ الدكتور عبد الكريم الزبيدي

إن الإمام الهادي (ع) كان يصل أبناء قاعدته الشيعية ويتفقد أحوالهم، ومن يأتيه محتاجاً منهم لا يرده دون أن يقضي حاجته. وهذا يعني أن الشيعة العارفين بإمامهم في تلك الفترة لم يقصدوا غير الإمام من أهل السلطة في قضاء حوائجهم.

□ الدكتور عبد الكريم الزبيدي
باحث إسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم^(*)

- ١ -

اسمه وكنيته ولقبه :

أما بقية

ألقابه

فالظاهر أنها

كانت تستعمل

في

المخاطبات

بينه وبين

شيعة

وأصحابه

بقصد

التمويه على

الراصدين له

من أعدائهم.

* * *

- ٢ -

ولادته ونشأته :

وُلِدَ أبو الحسن علي بن محمد الهادي في قرية من قرى المدينة المنورة يقال لها (صريا) وهي تبعد عن مركز المدينة مسافة ثلاثة أميال تقريباً . وقد اختلفت الروايات التي أرخت ولادته إلى طائفتين، ذهبت الأولى إلى أن ولادته كانت سنة^(١) الروايات فذهبت إلى أن ولادته كانت سنة 214 هـ ، وهذه الطائفة اختلفت أيضاً في تحديد اليوم والشهر الذي ولد فيه من هذه السنة ، فذهب بعضها إلى أنه ولد في الثالث عشر من رجب ، وذكر بعضها أنه ولد في رجب من تلك السنة ولم يعين يوماً منه^(٢) .

إن وراء هذا الاختلاف في تأريخ ولادته أسباباً منها أن الأئمة (ع) كانوا يتكتمون على ولادة من يعرفون أنه الإمام الذي سيحمل أعباء الإمامة بعد أبيه حسب الأمارات والعلامات التي وردت إليهم من رسول الله (ص) ثم تناقلها الأئمة إماماً بعد إمام . وقد يخفون ولادة الإمام على شيعتهم وحتى المقربين من أصحابهم ، إذا اقتضت الظروف ذلك ، خوفاً على الإمام من أن تقتله السلطة التي تسعى إلى قطع سلسلة الإمامة وإنهائها . ومن أمثلة ذلك ما

(*) أُلقيَ البحث في الندوة التي أقامتها مؤسسة الإمام الخوئي (قد) بمناسبة ولادة الإمام علي بن محمد الهادي

(ع) يوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٤٢١ هـ .

حدثنا التأريخ أنه حين توفي الإمام موسى الكاظم (ع) وقام بالإمامة بعده ابنه علي بن موسى الرضا (ع)، جاء عيسى بن جعفر إلى هارون الرشيد وقال له : اذكر يمينك التي حلفت بها في ال أبي طالب فإنك حلفت إن ادعى أحد الإمامة بعد موسى بن جعفر أن تضرب عنقه صبراً ، وهذا عليّ ابنه يدعي هذا الأمر ويقال فيه ما يقال في أبيه .^(٦) وقد لا يجد والد الإمام الفرصة المناسبة لإعلان ولادة ابنه الإمام إلا بعد عدة أيام أو شهر أو عدة أشهر أو سنة فيظن الناس أن الولادة كانت في الوقت الذي أُعلنت فيه .

وقد يكون سبب الاختلاف في تعيين اليوم والشهر الذي ولد فيه اختلاط تاريخ ولادته بتاريخ وفاته (ع) على الرواة ، فقد جاء في بعض الروايات أنه توفي في الثالث من رجب^(٧) ، ولا يخفى على المتأمل التداخل الحاصل في ذكر اليوم والشهر في تأريخ ولادته ووفاته . وقد يكون سبب الاختلاف المذكور اختلاف نقل الرواة ، كما يتضح من اختلاف الروايات في ذكر اليوم والشهر الذي توفي فيه الإمام (ع) ، فقد نقل المسعودي أنه توفي يوم الإثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة^(٨) ، ونقل اليعقوبي أنه توفي لثلاث بقين من جمادى الآخرة^(٩) ونقل عبد الملك العصامي أن وفاته كانت يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة^(١٠) ولا يخفى على المتأمل اختلاف الرواة في نقل يوم وفاته بين ثلاث وأربع وخمس بقين من جمادى الآخرة .

والراجح عندي أنه ولد في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ٢١٢ هـ ، وقد اعتمدت في الترجيح على القرائن التالية

١- أشارت بعض مصادر التاريخ _ وهي تتحدث عن حوادث سنة ٢٢٣ هـ - إلى أن المتوكل العباسي كتب إلى علي بن محمد بن علي الرضا (ع) بالشخص من المدينة المنورة إلى سامراء^(١١) .

٢- ذكرت بعض مصادر التاريخ أنه أقام بسامراء عشرين سنة وتسعة أشهر^(١٢) .

٣- ذكرت بعض المصادر أنه عاش في المدينة المنورة عشرين سنة وأشهرًا ، وذكر بعضها أنه عاش فيها إحدى وعشرين سنة^(١٣) .

وبناء على ما تقدم يمكن القول أنه جاء إلى مدينة سامراء في شهر شوال من سنة ٢٢٣ هـ ، وبقي فيها إلى أن توفي في شهر جمادى الآخرة سنة ٢٥٤ هـ . وهذا يعني أنه جاء إلى سامراء وكان عمره الشريف عشرين سنة وأحد عشر شهرًا ، وهو مطابق تقريباً لما ذكرته المصادر السابقة

٤- ذكرت بعض المصادر أنه عاش إحدى وأربعين سنة وستة أشهر ، وذكر بعضها أنه عاش اثنتين وأربعين سنة^(١٤) .

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه ولد في الخامس عشر من ذي الحجة ، وتوفي في السادس والعشرين من جمادى الآخرة فيكون عمره الشريف حين توفي إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً ، وهو مطابق تقريباً لما ذكرته المصادر السابقة .

لم يتمتع الإمام الهادي (ع) بالعيش أيام طفولته في كنف والده الإمام الجواد (ع) ، بسبب

الظروف السياسية التي لم تدع للإمام الجواد فرصة للإقامة في مدينة جده رسول الله (ص) . والحقيقة أن المصادر التي تحدثت عن حياة الإمام الجواد تركت مساحة كبيرة من حياته لم تشر إليها ، ولكننا باتباع أسلوب التحقيق نستطيع أن نتلمس قدراً كبيراً من تلك المساحة المتروكة .

تشير المصادر التي تحدثت عن الإمام الجواد (ع) أن المأمون لما عزم على تزويج ابنته أم الفضل للإمام الجواد كان للإمام من العمر تسع سنوات، فاعترض بنو العباس من أهل بيت المأمون على هذا الزواج ، وادعوا أنه صبي لم يتفقه في الدين بعد ، فأراد المأمون أن يعرفهم منزلته وعلمه فطلب منهم أن يمتحنوه ، فعقد له مجلساً ، وجاءوا بقاضي القضاة يحيى ابن أكتثم لمناظرته ...^(١٣)

ولا يستطيع المحقق أن يسلم أن الإمام تزوج في سن تسع سنين ، ولكن المقبول عنده أن المأمون بعد أن زوج ابنته أم حبيب للإمام الرضا (ع) سنة ٢٠٢ هـ ، أراد بعد سنة أن يزوج ابنته الثانية أم الفضل لابن الرضا محمد الجواد (ع) ، فعقد له عليها بمرو سنة ٢٠٣ هـ ، وكان عمر الجواد آنذاك ثماني سنوات . وفي تلك السنة عزم المأمون على التوجه من مرو إلى بغداد ، وكان يصحبته الإمام الرضا (ع) ، ولكن الإمام استشهد في الطريق في قرية من قرى خراسان ودُفِنَ بها . ولما عاد المأمون إلى بغداد في تلك السنة اعترض على هذا الزواج بنو العباس من قرابته الأدينين متعللين بصغر سن الجواد وعدم تفقهه في الدين ، فأراد المأمون أن يعرفهم فضله ومنزلته فاستدعاه ورتب له تلك المناظرة المشهورة بينه وبين قاضي القضاة يحيى بن أكتثم ، وكانت تلك المناظرة سنة ٢٠٤ هـ ، وكان عمر الجواد فيها تسع سنوات .

ولم تشر المصادر بعد هذه الحادثة إلى حياة الجواد (ع) ، ولكن الراجح أن الإمام عاد إلى مدينة جده رسول الله (ص) وبقي فيها مدة من الزمن تقدر بست سنوات إلى أن تزوج من امرأة مغربية تدعى سمانة ، وكان عمره الشريف حين تزوجها ستة عشر عاماً ، أي كان زواجه سنة ٢١١ هـ ، ثم ولد له الإمام أبو الحسن علي الهادي (ع) سنة ٢١٢ هـ .

لقد أشارت المصادر إلى أن الإمام الجواد خرج مرتين من المدينة إلى بغداد ، فقد رُوي عن إسماعيل بن مهران أنه قال : لما خرج أبو جعفر من المدينة إلى بغداد في الدفعة الأولى من خروجه ، قلت له عند خروجه : جُعِلْتُ فداك إني أخاف عليك في هذا الوجه ، فإلى مَنْ الأمر بعدك ؟ فكرَّ بوجهه إليَّ ضاحكاً وقال : ليس حيث ظننت في هذه السنة . فلما استدعيني به إلى المعتصم صرْتُ إليه فقلت له : جُعِلْتُ فداك فأنت خارج ، فإلى مَنْ هذا الأمر من بعدك ؟ فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم التفت إليَّ فقال : عند هذه يخافُ عليَّ ، الأمر من بعدي إلى ابني علي .^(١٤)

وبناء على ذلك فإن المأمون قد استدعاه بعد سنة ٢١٢ هـ ، ليبرِّ له بوعده إياه في تزويجه ابنته أم الفضل التي كان قد عقد له عليها سنة ٢٠٣ هـ ، ولم أجد في المصادر التي بين يدي ذكراً للسنة التي استدعاه فيها المأمون إلى بغداد ، ولكن الراجح أنه توجه إلى بغداد وترك

ابنه الإمام الهادي وهو لم يتجاوز الثانية من عمره الشريف ، وحين وصل بغداد نظّم له المأمون عدة مجالس ناظر فيها علماء العصر _ وأجاب عن أسئلة السائلين ، وقد ذكرت المصادر أنه أجاب عن ثلاثين ألف مسألة في مجلس واحد ، ولما ظهر فضله على الناس جميعاً ، وفاق علمه على مشايخ عصره قرر المأمون إعلان زواجه من ابنته ، وقد وصفت المصادر مراسم الزواج حينذاك ، ولكن الذي يهمنا هو أن هذا الزواج تم _ على الأرجح _ بين سنتي ٢١٤ _ ٢١٥ هـ .

وبعد زواجه (ع) من أم الفضل لم يسمح له المأمون بالخروج من بغداد حتى جاءت سنة ٢١٨ هـ ، فقرر المأمون أن يغزو الروم في هذه السنة ، حينئذ استأذنه الإمام الجواد بالتوجه مع أم الفضل إلى المدينة المنورة ، فأذن له المأمون ، فتوجه الإمام بأم الفضل إلى المدينة المنورة في تلك السنة ، ولما وصلها كان عمر ابنه الإمام الهادي حوالي ست سنوات . وفي تلك السنة مات المأمون في مدينة طرسوس وهو في طريقه إلى غزو الروم ، وبويع لأخيه أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد الملقب بالمعتصم في الثامن عشر من رجب من تلك السنة . وما كاد الإمام الجواد (ع) يستقر في المدينة المنورة ، وينعم ابنه الهادي برؤيته حتى استدعاه المعتصم في أول سنة ٢٢٠ هـ ، فقد ذكر هاشم معروف الحسني نقلاً عن المفيد في الإرشاد أنه (ع) ورد بغداد في المحرم من تلك السنة .^(١٤) وفي هذه المرة من خروجه إلى بغداد أوصى بالإمامة لولده الإمام علي الهادي (ع) ، كما جاء في رواية إسماعيل بن مهران التي سبق ذكرها ، إذ قال له الإمام: عند هذه يخافُ عليّ ، الأمر من بعدي إلى ابني علي .

وفي آخر ذي القعدة من سنة ٢٢٠ هـ استشهد الإمام الجواد في بغداد ، ودُفِنَ مع جده الإمام الكاظم (ع) ، وكان عمر الإمام علي الهادي في ذلك الوقت ثمانين سنوات ، وفي هذه السن المبكرة قام الإمام الهادي بأعباء الإمامة التي هي أكبر من أعباء الخلافة في الحقيقة ، وذلك في ظل أوضاع سياسية واجتماعية شديدة . وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة .

* * *

- ٣ -

سيرته العلمية:

إن كل عالم أو متعلم لابد من أن يكتسب علمه بطريق التلمذة والدراسة ، وقد جرت عادة الباحثين وأصحاب التراجم حين يريدون أن يترجموا لشخصية علمية أن يذكروا الشيوخ والأساتذة الذين تتلمذت على أيديهم تلك الشخصية ، وأن يذكروا التلاميذ الذين أخذوا عنها أيضاً . ولكن هؤلاء حين يريدون أن يترجموا لأحد الأئمة الذين يعتقد الشيعة بإمامتهم وعصمتهم فإنهم لا يستطيعون أن يذكروا أحداً أخذوا عنه علومهم سوى آبائهم ، وقد تعرض لأحدهم ظروف شديدة لا تسمح له أن يعلم ولده إلا مدة قصيرة من الزمن ، كما حصل لأبي جعفر محمد بن علي الجواد مثلاً ، ولأبيه علي الرضا من قبل . لقد اضطر الإمام الرضا (ع)

إلى الخروج إلى خراسان بأمر المأمون ، وترك ولده الجواد وعمره ست سنوات تقريباً ، ثم لم يره بعد ذلك الوقت ، فقد توفي (ع) بخراسان ودُفِنَ فيها . وحصل مثل ذلك للجواد(ع) فقد خرج من المدينة المنورة إلى بغداد بأمر المأمون وترك ولده الإمام علي الهادي ولم يتجاوز عمره الشريف سنتين ، ولما عاد إلى المدينة كان عمر الهادي ست سنوات . وبعد سنتين خرج مرة ثانية من المدينة إلى بغداد بأمر المعتصم ، ثم لم ير ابنه بعد ذلك فقد توفي في بغداد حين بلغ الهادي ثماني سنوات . إن جميع المدة التي قضاها الجواد مع ولده الهادي أربع سنوات تقريباً ، منها سنتان بعد ولادته ، ثم سنتان بعد أن بلغ من العمر ست سنوات .

إن استيعابهم علوم الدين والدنيا وهم في سن مبكرة ، ودون أن يتعلموا على أحد لهم من أكبر الأدلة على أن الله تعالى قد اصطفاهم على الناس بحمل أعباء الإمامة ، وجعلهم مؤهلين عقلياً وجسمياً لذلك ، فلو لم نقل بهذا فكيف نفسر أن الإمام الجواد قد ناظر شيوخ وعلماء عصره وهو في التاسعة من عمره ، فأسكتهم ولم يستطيعوا إلا أن يسلموا له وهم يقولون : سبحان الله ، الله يعلم حيث يجعل رسالته ، وقد ذكرت هذه المناظرات كتب التراجم والسير من الفريقين .

والإمام الهادي (ع) قام بأعباء الإمامة وهو في الثامنة من عمره ، ولم يتعلم على أحد سوى تلك السنوات الأربع التي قضاها مع أبيه الجواد كما ذكرت سابقاً ، ولكنه كان إمام الناس في زمانه ، لم يسأله أحد قط إلا أجابه ، ولم يناظره أحد قط إلا أسكته ، حتى أجمع المسلمون في عصره على فضله وعلو كعبه في علوم الدين والدنيا وقد نعتة جميع الذين ترجموا له أو ذكروه في كتبهم بالعلم والفضل . قال أبو عبد الله على ضياع ملك بني العباس بسبب ما يراه من اتباع الناس له ، وتقضيلهم إياه على من سواه . وقد حفلت المصادر التي ترجمت له ، وكذلك مصادر التشريع بذكر مواقف كثيرة له يظهر بها علمه وفضله ومكانته ، وكونه ممن اصطفاهم الله تعالى بالإمامة على الناس .

* * *

- ٤ -

وظيفته أثناء مدة إمامته (ع) :

إن وظيفة الأئمة (ع) بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) تركّزت في الحفاظ على الإسلام الأصيل حتى يأتي اليوم الذي يظهر الله فيه دينه على الأديان كلها ، وإذا أراد الباحث أن يستجلي الأسس التي تقوم عليها هذه الوظيفة يجد أنها تركز على الأسس التالية :

١- تأكيد مرجعية الإمام الفكرية والفقهية للأمة ، وفرض إمامته من هذه الناحية عليها ، لكي ترجع الأمة في أخذ أحكام الإسلام في شؤون حياتها الدينية والدنيوية إلى حملة الإسلام الأصيل . وقد تجلّى ذلك في ممارسات كثيرة منها : إقامة حلقات الدرس التي يلقي فيها الإمام علومه على الدارسين الذين كان منهم علماء بارزون وأئمة مذاهب معروفون . وقد كانت تلك الحلقات شكلاً من أشكال المعاهد العلمية أو الجامعات في عصرنا الحاضر

وقد سجل التاريخ ممارسة هذا النوع من تأكيد المرجعية الفكرية والفقهية للأمة لكل من لأئمة علي بن الحسين (زين العابدين) ومحمد بن علي (الباقر) وجعفر بن محمد (الصادق) موسى بن جعفر (الكاظم) وعلي بن موسى (الرضا) - عليهم السلام جميعاً - وقد يقوم أحدهم بعقد الندوات العامة التي يحضرها العلماء وعامة الناس لكي يجيب عن أسئلتهم استفساراتهم ، واشتهر بعقد هذه الندوات من الأئمة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) . من تلك الممارسات عقد المناظرات العلمية مع علماء وفقهاء العصر الذين يرجع إليهم الناس في أخذ أحكام دينهم ، لإظهار عجزهم ، وإقراهم بعدم الكفاءة للتصدي لمرجعية الأمة . وقد سجل التاريخ ممارسة هذا النوع من تأكيد مرجعية الإمام الفكرية والفقهية للأئمة لكل من الإمام محمد بن علي (الجواد) وعلي بن محمد (الهادي) - عليهما السلام - ومن تلك الممارسات أيضاً الإجابة عن المسائل الفقهية وغير الفقهية التي يحيلها إليهم السلاطين من ملوك عصرهم بعد أن يعجز عن الإجابة عنها العلماء السائرون في ركبهم ، وقد سجل التاريخ ممارسة هذا النوع من تأكيد مرجعية الإمام للأئمة للإمام علي بن محمد الهادي والإمام الحسن بن علي العسكري - عليهما السلام -

كان الأئمة (ع)
يجيبون على
المسائل
الفقهية
وغيرها التي
يحيلها عليهم
سلاطين
عصرهم والتي
كان يعجز عن
الاجابة عليها
العلماء
السائرون في
ركبهم.

ولما كان هذا البحث معقوداً للحديث عن الإمام علي بن محمد الهادي (ع) فأنا أورد بعضاً يسيراً مما سجلته المصادر التاريخية والتشريعية لما كان الإمام يفعلهُ لتأكيد مرجعيته للأئمة .

منها ما رواه الكليني في كتاب الحدود أنه قُدِّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم ، فسأل المتوكل يحيى بن أكثم عن حكمه ، فقال : قد هدم إيمانه شركه وفعله ، وقال بعضهم : يضرب ثلاثة حدود ، وكثرت الآراء في حكمه ، فأمر المتوكل بالكتابة إلى أبي الحسن الهادي (ع) وسؤاله عن ذلك ، فلما قرأ الكتاب كتب في جوابه : يضرب حتى يموت . فأنكر يحيى بن أكثم ذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين إن هذا لم ينطق به كتاب ولم تجيء به سنة عن رسول الله (ص) . فكتب إلى الهادي : إن فقهاء المسلمين قد أنكروا هذا وقالوا لم تجيء به سنة ولم ينطق به كتاب ، فبين لنا لم أوجب عليه الضرب حتى يموت ؟ فكتب (ع) : بسم الله الرحمن الرحيم فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين × فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ^(١٨) . وقال العباس بن هلال سألت أبا الحسن علي بن محمد (ع) عن قول الله عز وجل : " الله نور السماوات والأرض " فقال (ع) : يعني هادي من في السماوات ومن في الأرض ^(١٩) . ومنها أن الفقهاء تذكروا بحضرة المتوكل حول : من خلق رأس آدم ؟ فلم يعرفوا من خلقه . فقال المتوكل ابعثوا إلى علي بن محمد الهادي ، فلما حضر سألته عن ذلك ، فقال (ع) : حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده قال : إن الله أمر جبرئيل أن ينزل بياقوته من يواقيت الجنة فنزل بها فمسح بها رأس آدم فتناثر الشعر منه ، وحيث بلغ نورها صار حرماً ^(٢٠) . ومنها أن المتوكل نادى رجلاً نصرانياً : يا أبا نوح ، فأنكروا عليه أن يكتي الكافر ، فاستفتى في ذلك فاختلفوا في الجواب ، فكتب إلى أبي الحسن بذلك ، فوقع

سأله أحد أصحابه ان يعلمه دعوة جامعة للدين والآخره، فقال له: اكثر من الاستغفار والحمد فانك تدرك بذلك الخير كله.

عليه : قال تعالى : " بسم الله الرحمن الرحيم تبَّتْ يدا أبي لهب " ، فعلم المتوكل أنه يحل أن يكنى الكافر ، لأن الله قد كنى الكافر .^(١٢) وسأله أحد أصحابه ان يعلمه دعوة جامعة للدين والآخره ، فقال له : أكثر من الاستغفار والحمد فإنك تدرك بذلك الخير كله .^(١٣)

ومنها ما رواه الطبرسي عن ابن عياش بسنده عن ابي هاشم الجعفري ، أنه قال : كنت بالمدينة حين مرَّ بها بقاء وهو يطلب الأعراب (بقاء اسم من الأسماء التركية ، وكان لرجل تركي من قواد المتوكل) فقال أبو الحسن (ع) : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى تعبئة هذا التركي ، فخرجنا فوقفنا ، فمرت بنا تعبئة فيها رجل تركي ، فلما مر قريباً منا كلمه أبو الحسن بالتركية ، فنزل التركي عن فرسه فقبل حافر دابته . قال : فجئت إلى التركي وحلفت أن يقول ما قاله له أبو الحسن ، فقال : أهذا نبي ؟ قلت : ليس هذا بنبي ، قال : لقد دعاني باسم سُميتُ به في صفري في بلاد الترك ، ولم يعرف به احد هنا أبداً .^(١٤) ومنها ما روي عن الفتح بن يزيد الجرجاني أنه قال : ضممني انا وأبا الحسن الطريق عند منصرفي من مكة إلى خراسان ، وهو صائر إلى العراق ، فسمعتة يقول : مَنْ اتقى الله يُتَّقَى ، مَنْ أطاع الله يُطَاع . قال فتلطفت في الوصول إليه وسلمت عليه ، فرد علي السلام وأمرني بالجلوس ، فأول ما ابتدأني به ان قال : يا أبا الفتح مَنْ أطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوق ، ومن أسخط الخالق فأيقن أن يحل به الخالق سخط المخلوق . وأن الخالق لا يوصف إلا ما وصف به نفسه ، وأني يوصف الخالق الذي تعجز الحواس ان تدركه ، والأوهام ان تناله ، والخطرات أن تحده ، والأبصار عن الإحاطة به ، جلَّ عما يصفه به الواصفون ، وتعالى عما ينعت به الناعتون علواً كبيراً ، تنأى في قربه وقرب في نأيه ، فهو في نأيه قريب وفي قربه بعيد ، كيف الكيف فلا يقال فيه : كيف ، وأين الأين فلا يقال فيه : أين ، إذ هو منقطع الكيفية والأينية ، هو الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فجعل جلاله بلا كيف يوصف بكنهه . ورسوله محمد قد قرنه باسمه وشركه في إعطائه ، وأوجب لمن أطاعه جزاء طاعته ، إذ يقول تعالى : " وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله " وقال تعالى يحكي عن ترك طاعته وهو يعذبه بين أطباق نيرانها وسراويل قطرانها : " يا ليتنا أطعنا الرسول " ... قال الفتح : فخرجت فلما كان من الغد تلطفت في الوصول إليه وسلمت عليه ،

فقلت : يا ابن رسول الله أتأذن لي في مسألة اختلجت في صدري ليلتي هذه ؟ قال : اسأل ... واثبت في مسألتك ، واصغ في جوابها سمعك ، ولا تسأل مسألة تعنت . فإن العالم والمتعلم شريكان في الرشد مأموران بالنصيحة منهيان عن الغش . فالذي اختلج في صدرك _ إن شاء الله _ أنا أنبؤك به : إن الله لم يظهر على غيبه أحد إلا مَنْ ارتضى من رسول ، فكل ما كان عند الرسول كان عند العالم (يعني العالم من آل بيت الرسول وهو الإمام) كي لا تخلو أرضه من حجة يكون له علم على صدق مقالته وجواز عدالته . يا فتاح عسى الشيطان أراد اللبس عليك فاوهمك في بعض ما أودعتك ، وشككت في بعض ما أنبأتك ، حتى أراد إزالتك عن طريق الله الذي فرضه الله والصراط المستقيم . فقلت له : جعلت فداك فرجت عني وكشفت ما لبس الملعون علي بشرك ، فقد اوقع في خلدي أنكم أرباب . قال : فسجد

أو الحسن (ع) وهو يقول في سجوده : راغماً لك يا خالقي ، داخراً خاضعاً . فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل ^(٢٤) . هذه أمثلة قليلة وهي غيض من فيض ، ولا يتسع هذا البحث الموجز لذكر أكثر منها .

٢- بناء قاعدة شيعية واعية تحمل الإسلام الأصيل و تكون مرتبطة مباشرة بالإمام ، و سُميت هذه الشريحة من الأمة بالشيعية ، وكان كل إمام يشرف مباشرة على هذا الكيان لمصغر من الأمة ويوليه عناية كبيرة في تنمية وعي أفرادها ، وتسليحهم بالعلم والفكر الإسلامي الأصيل ، والارتفاع بأخلاقهم إلى مستوى أخلاق أهل البيت (ع) ، وكان كل إمام يعمل على حماية هذا الكيان اجتماعياً من التصدع والانشقاق ، بتنظيم أساليب لحل الخلافات الشخصية بين أفرادها ، أو بالتدخل المباشر في ذلك ، وأيضاً حمايته اقتصادياً من الفقر والحاجة . وقد أظهر الإمام الهادي (ع) تأكيداً واضحاً على القيام بهذا الجانب من وظائفه فيما يخص بناء القاعدة الشيعية الواعية ، كما يتضح من خلال الحديث عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الإمام (ع) .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الإمام الهادي (ع) :

عاصر الإمام الهادي (ع) سبعة من خلفاء بني العباس وهم : المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز ، وقد كان الإمام في المدينة المنورة حين مات المأمون وانتقلت السلطة إلى المعتصم ، وحين بلغ من العمر ثمانين سنوات استدعى المعتصم والده الإمام الجواد (ع) إلى بغداد ، فكان يشاهد والده وهو يودع أهله الوداع الأخير ، ويجمع أصحابه وشيعته المقربين ليعرفهم بإمامهم الذي يرجعون إليه بعده ، وينصّ عليه أمامهم قائلاً : إن حدث بي حادث فالأمر من بعدي إلى ابني علي . إن الإمام من بعدي ابني علي ، أمره أمري ، وقوله قلبي ، وطاعته طاعتي . فأحس الإمام بالخطر الذي ينزل بأبيه من قبل المعتصم ، وأعد نفسه لتحمل المسؤولية الكبرى بعد أبيه ، وهو واع كل الوعي لما يحيط به من أوضاع في عصره .

الحالة الاجتماعية في عصره

يمكن وصف الحالة الاجتماعية في عصره بما يلي : خوف وعدم أمان ، فقر في عامة الناس ، فساد أخلاقي ، ميل إلى اعتناق الأفكار التي تهدم الإسلام ، انتشار البدع والخرافات وقد سجل التاريخ بعض الحوادث التي يستطيع الباحث أن يستدل بها على تلك الحالة ، منها ما ذكره اليعقوبي على سبيل المثال أن المَحْمَرَّة (وهم عصابات تلبس ملابس حمراء) خرجت بالجبل فقتلوا وقطعوا الطريق ، وأخافوا السبيل ، وعرضوا لحاج خراسان فقتلوا منهم جماعة ، فوجه المعتصم إليهم هاشم بن باتيجور ووثب الزط بالبطائح بين البصرة وواسط فقطعوا الطريق وأخافوا الناس ونهبوا وسلبوا ^(٢٥) . وذكر الطبري أن بني سليم فسدوا في المدينة المنورة ، وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيفما

كان كل إمام

من أئمة أهل

البيت (ع)

يعمل على

بناء قاعدة

شيعية واعية

تحمل

الاسلام

الأصيل

وتكون

مرتبطة

مباشرة

بالامام وكانوا

عليهم السلام

يعملون على

حماية هذا

الكيان .

كان الامام
الهادي (ع)
يقوم
بتربية
شيعة
وتعليمهم
ورفع
مستوى
الوعي
لديهم بما
يحيط بهم
من تيارات
فكرية
ودعوات
فاسدة.

شاءوا... ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بناس من بني كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم... وغلظ أمر بني سليم فاجتاحت القرى والمناهل بين مكة والمدينة حتى لم يمكن لأحد أن يسلك ذلك الطريق، وحصل هذا في سنة ٢٣٠هـ^(٣٦) وفي سنة ٢٣١هـ نهبت جماعة بيت المال الذي في بيت العامة في جوف القصر وأخذوا اثنين وأربعين ألفاً من الدراهم وشيئاً من الدنانير^(٣٧). وظهرت في هذه الفترة دعوة الخرمية فاستجاب لها كثير من الناس (والخرمية أصحاب بابك الخرمي المزدكي... إباحيون في اتباع الشهوات واستحلال المحرمات كلها، ويقولون إن الناس كلهم شركاء في الأموال والحرم)^(٣٨) وظهرت في هذه الفترة فتنة خلق القرآن التي عصفت بالناس علماء وعامة حتى لم يبق أحد إلا أصابه شيء منها بسوء. وفي سنة ٢٣٥هـ ظهر بسامراء رجل يدعي أنه ذو القرنين وأنه نبي يوحى إليه، وصار له أتباع كثيرون في بغداد^(٣٩). وظهر الغلاة مرة أخرى في هذه الفترة، ووجدت دعوتهم منفساً لها من أعداء الأئمة الذين كانوا يعملون للتشويش عليهم وتشويه المعنى الصحيح للإمامة. ومن هؤلاء علي بن حسكة والقاسم بن يقطين، والحسن بن محمد المعروف بابن باب ومحمد بن نصير التميمي وفارس بن حاتم القزويني الذي كان أخطرهم على الدين وأقدرهم على فتنة الناس وأبرعهم في الدس والتضليل^(٤٠).

وقد كان الشيعة من أتباع أهل البيت شريحة من هذا المجتمع يؤثر فيهم كل ما يؤثر في المجتمع، ولكن الإمام الهادي (ع) كان واعياً لما يمر بالمجتمع من مؤثرات اجتماعية، فقام بالجانب الأساس من وظيفته العامة فيما يخص بناء القاعدة الشيعية التي تحمل الإسلام الأصيل. ويستطيع الباحث من خلال دراسته ما عرضته المصادر التي تحدثت عن سيرته أن يكون صورة واضحة عما كان الإمام يفعل تجاه قاعدته الشيعية في تلك الظروف التي كان المجتمع يمر بها.

كان الإمام الهادي (ع) يقوم بتربية شيعة وتعليمهم ورفع مستوى الوعي لديهم بما يحيط بهم من تيارات فكرية ودعوات فاسدة، فكان (ع) يقوم بمحاربة البدع ورد الشبهات، وتنفيذ الدعوات المنحرفة وإبطال مزاعمها، وتحصين أبناء قاعدته الشيعية من التأثير بها. وكان يصل شيعة بالأموال التي تعينهم على العيش في تلك الفترة الشديدة، وتعصمهم من أن يمدوا أيديهم إلى ما لا يحل لهم. وكان يحرص على أمنهم وعدم تعرضهم إلى تنكيل السلطات الحاكمة.

وفي التاريخ إشارات إلى ما كان الإمام (ع) يقوم به تجاه شيعة. فأمّا صلته لشيعة بالأموال فقد حفلت بذكره كل الكتب التي تحدثت عن سيرته (ع)^(٤١). وأمّا تعاوده إياهم بالتربية والتعليم ومحاربة البدع والدعوات المنحرفة، وتحصينهم من التأثير بها فهو من الأمور المشهورة، فكل من تحدث عن سيرة الإمام الهادي تحدث عن وصاياه وخطبه ورسائله لشيعة، ومن ذلك ما كتبه إلى شيعة بخصوص فتنة خلق القرآن، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، عصمنا الله وإياك من الفتنة، فإن يفعل فقد أعظم بها نعمة، وإن لا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السائل

ما ليس له . ويتكلف المجيب ما ليس عليه ، وليس الخالق إلا الله عز وجل وما سواه مخلوق . القرآن كلام الله لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين . جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون .^(٣٦) ولما انتشرت بين الناس بدعة جواز رؤية الله تعالى كتب (ع) إلى شيعته : (لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر ، فإذا انقطع الهواء وعُدِمَ الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية ، وكان في ذلك الاشتباه ، لأن الرائي متى ساوى المرئي من السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان في ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لابد من اتصالها بالمسببات) .^(٣٧)

من وظائف

الامام إبقاء

جذوة الرفض

للاواقع

المنحرف ولو

بالتهميد

للثورة على

ذلك الواقع .

ويمكن القول أن شيعة أهل البيت كانوا في حال اجتماعية حسنة خلال هذه الفترة بدليل أن التاريخ لم يسجل عليهم ظهور حالة سيئة كإخافة الناس أو قطع الطريق عليهم أو نهبهم أو إظهار بدعة أو ضلالة . أما ما ظهر من الفلو من بعض الغلاة وأتباعهم فلم يكن هؤلاء الغلاة من الشيعة . وقد حاربهم الإمام وأبطل ادعاءاتهم في أكثر من زمان ومكان . ولما أحس بالخطر على شيعته من فارس بن حاتم دعا إلى تصفيته واغتياله وأهدار دمه .^(٣٨)

الحالة الاقتصادية في عصره

أما الحالة الاقتصادية فيمكن وصفها بأنها سيئة بسبب سوء توزيع الأموال والثروات من قبل الخلفاء والولاة والوزراء والكتاب وحاشياتهم ، وتبذيرها في الشهوات وبناء القصور والإنفاق على العساكر التركية والانكشارية ، فكانت البلاد تتعرض من وقت إلى آخر لأزمات اقتصادية شديدة أثرت على الناس وعلى أخلاقهم ، مثل ما ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٢٨ هـ ، قال: وفيها غلا السعر بطريق مكة فبلغ رطل الخبز بدينار وراوية ماء بأربعين درهماً^(٣٩) وذكر اليعقوبي غلاء الأسعار وانقطاع الميرة عن الناس ببغداد وسراً من رأى في خلافة المستعين حتى صار القفيز بمائة درهم ، وذكر أيضاً أن الجند بسر من رأى وثبوا مرة بعد مرة

وتحاملوا على أوتامش واتهموه بأخذ أرزاقهم .^(٤٠)

وقد تقدم أن الإمام الهادي (ع) كان يصل أبناء قاعدته الشيعية ويتفقد أحوالهم ، ومن يأتيه محتاجاً منهم لا يرده دون أن يقضي حاجته . وهذا يعني أن الشيعة العارفين بإمامهم في تلك الفترة لم يقصدوا غير الإمام من أهل السلطة في قضاء حوائجهم . ومن ذلك ما ذكره صاحب المناقب أن أبا عمرو عثمان بن سعيد وأحمد بن إسحاق وعلي بن جعفر الهمداني دخلوا على أبي الحسن العسكري فشكا إليه أحمد بن إسحاق ديناً عليه ، فقال : يا أبا عمرو _ وكان وكيله _ ادفع إليه ثلاثين ألف دينار ، وإلى علي ابن جعفر ثلاثين ألف دينار وخذ أنت ثلاثين ألف دينار .^(٤١)

٣- الركيزة الثالثة من الركائز الأساسية التي تقوم عليها وظيفة الأئمة بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) هي إمداد الأمة بالحياة اللازمة لممارسة واجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإبقاء على ضميرها حياً بالدفاع عن الإسلام حين يتعرض إلى خطر

في تاريخ
الطبري وابن
الأثير: ان
المتوكل
العباسي أمر
بهدم قبر
الإمام
الحسين (ع)،
ومنع الشيعة
من زيارته
وفرض على
من يريد
زيارة الامام
عقوبات
كثيرة وصلت
الى حد قطع
الأيدي
والأرجل.

الحالة السياسية في عصره

المصادرة والتميع من قبل الحكام المنحرفين ، والدفاع عنه حين يتعرض إلى خطر من خارج المجتمع الإسلامي ، وكذلك إبقاء جذوة الرفض للواقع المنحرف وعدم التسليم له متفددة في ضمير الأمة دائماً ، ولو بالثورة على الواقع المنحرف وبذل الدماء من أجل تصحيحه ، وأيضاً إدامة الحياة لشعور الأمة بأن أئمة أهل البيت هم الذين يستحقون قيادة الأمة ورئاسة الدولة الإسلامية ، وأن غيرهم مفتصب لهذا الحق . وقد قام الإمام الهادي (ع) بهذا الجانب من وظيفته أحسن قيام ، كما يتضح من الحديث عن الحالة السياسية والثورات التي حصلت في عصره (ع) .

لقد كانت الحالة السياسية في عصر الإمام (ع) سيئة جداً ، ويمكن وصفها بما يلي : محاربة أتباع أهل البيت وعلى رأسهم الإمام (ع) ، والتضييق عليهم بالرقابة الشديدة والحصار الدائم . تسلط الأتراك على مقاليد الأمور في الدولة وإظهار الفساد في جميع مرافقها . تصفية المعارضين بقسوة شديدة على يد العناصر الأعجمية التي اعتمدت عليها السلطة واطلقت أيديها في البلاد . المؤامرات السياسية التي كان أصحاب النفوذ والسلطة يدبرونها بعضهم لبعض ، ولم يسلم منها الخلفاء العباسيون أنفسهم . الفوضى السياسية في جميع أنحاء البلاد .

وقد أشارت إلى هذه الأمور بعض المصادر التاريخية فقد جاء في تاريخ الطبري وابن الأثير أن المتوكل أمر بهدم قبر الإمام الحسين (ع) وسأواه بالأرض ، ثم أمر بحرق الأرض وزرعها لتضيع معالم القبر ، ومنع الشيعة من زيارته وفرض على من يريد زيارة الإمام عقوبات كثيرة وصلت إلى حد قطع الأيدي والأرجل^(٢٨) واستدعى المتوكل الإمام الهادي من المدينة المنورة ووضع في سامراء تحت الإقامة الجبرية ، ومارس بحقه شتى صنوف الإزهاج ، فكان بين الحين والآخر يستدعيه للتحقيق معه ، أو يرسل عليه رجاله من الأعاجم ليفتشوا بيته ويرعبوا أهله . وقد أشارت كل المصادر التي تحدثت عن الإمام إلى هذه الحقيقة ، ومما ذكرته أن المتوكل أصابه الملل من كثرة استدعائه الإمام ومثوله بين يديه دون أن يستطيع فعل شيء يضره ، فقال : ويحكم قد أعياني أمر ابن الرضا ، وجهدت أن يشرب معي أو ينادمني فامتنع ، وجهدت أن أجد فرصة في هذا المعنى فلم أجدها .^(٢٩) وذكرت حادثة من حوادث المداهمة والتفتيش وهي أن المتوكل أرسل الأتراك ليلاً إلى دار أبي الحسن الهادي لتفتيشها بحجة وجود سلاح وأموال في داره ، فهجموا عليه في منزله على غفلة ، فوجدوه في بيت مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعر . وعلى رأسه ملحفة من صوف ، وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الحصى والرمل ، فأخذوه كذلك وحملوه إلى المتوكل^(٣٠) وذكرت أن المتوكل أرسل إلى الإمام وجلس ينتظر قدومه وهو يستشيط غضباً ويقول : والله لأقتلن هذا المرائي الزنديق الذي يدعي الكذب ويطن في دولتي ، ثم طلب أربعة من الخزر أجلاً فادفع إليهم

أسياً وأمرهم بقتل أبي الحسن إذا دخل ، وقال : والله لأحرقنَّه بعد قتله ، فدخل أبو الحسن وشفاته تتحركان وهو غير مكتوث ولا جازع ، فلما رآه المتوكل رمى بنفسه عن السرير وانكب عليه يقبله بين عينيه ويديه ويقول : يا سيدي يا ابن العم يا أبا الحسن .. ما جاء بك يا سيدي في هذا الوقت ؟ فقال : لقد جاءني رسولك ! فقال المتوكل : كذب ابن الفاعلة ارجع إلى مكانك ... ولما خرج قال للذين أمرهم بقتله : لِمَ لم تفعلوا ما أمرتكم ؟ قالوا : لما رأيناه هيناه وامتألت قلوبنا من هيئته .^(١١)

واستمرت الحالة مع الإمام بعد موت المتوكل خلال فترة حكم الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وكان الإمام طيلة هذه الفترة رهن الإقامة الجبرية في داره الكائنة بمنطقة العسكر في مدينة سامراء .

وكان تسلط الأتراك والعناصر الأعجمية على مقاليد الحكم في البلاد صفة بارزة للحالة السياسية في عصر الإمام الهادي (ع) ، وكانوا يتدخلون في رسم سياسة الدولة ، ويديرون شؤونها الداخلية ، ولم يسلم المتوكل نفسه من شرهم ، وتذكر مصادر التاريخ أن المتفذين الأتراك دخلوا على المتوكل منهم بغا الصغير ، وأوتامش وباغر بغلو ، ويريد ، وواجن ، وسعلفة ، وكنداش ، فوثبوا عليه فقتلوه بأسيا ففهم وقتلوا الفتح بن خاقان معه .^(١٢) وكان الغالب على المعتصم أيام خلافته من الأتراك الأفشين وجماعة من الأتراك منهم وصيف وسيما الدمشقي وسيما الشرابي ومحمد بن حماد بن دنفس . وكان الغالب على المستعين من الأتراك أيام خلافته أوتامش وكتبه شجاع بن القاسم ، وأحمد بن الخصيب . وثار الأتراك على أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه شجاع بن القاسم . وبلغ من تمادي الأتراك أيام خلافة المعتز درجة أن المعتز لم يكن له أمر ولا نهي بدونهم ، فلما رأى طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان من غلبة وصيف وبغا وغيرهما من الأتراك على أمر الخلافة وجه سليمان ابن عبد الله عمه إلى العراق ليضع حداً لهذا الأمر .^(١٣)

وكانت الفوضى السياسية والمؤامرات متفشية في الدولة العباسية في تلك الفترة وقد سجل التاريخ بعض الحوادث التي تدل على هذه الفوضى منها ما ذكره اليعقوبي أن المعتصم سخط على الفضل بن مروان وزيره وبطش بجماعة من أصحابه واستصفى أموالهم ، وسخط الواثق على إبراهيم بن رباح وكان والياً لديوان الضياع ، فتشاغل باللهو وفوض أموره إلى نجاح بن سلمة وإلى يمان النصراني ، وسخط المتوكل على عمر بن فرج الرخجي وعلى أخيه فقبضت أموالهما ، وسخط على الفضل بن مروان وقبض أمواله وضياعه ، وجرت بين الأتراك والأبناء منازعات أيام المستعين حتى تحاربوا ثلاثة أيام ، وخرجت عصابة من الأتراك والموالي إلى الكرخ أيام المستعين فخرج إليهم أوتامش فقتلوه ، وفي خلافة المعتز كثرت الاضطرابات وتأخرت أموال البلدان ونفذ ما في بيوت الأموال فوثب الأتراك بكرخ سرّاً من رأى فخرج إليهم وصيف فقتلوه .^(١٤)

إن هذه الفترة تعد من الناحية السياسية أشد الفترات التي مرت على الإثمة (ع) وأتباعهم ، لكونها تميزت بتسلط الأعاجم على مقاليد الأمور في الدولة ، وقد أشرنا سابقاً

أنهم كانوا من أعداء أهل البيت ، وكانوا أشد عليهم في المتابعة والرقابة ، وإذا أرادوا أن ينفذوا أمراً فيهم نفذوه دون أن يراعوا خلقاً ولا ذمة .

لقد كان الإمام الهادي (ع) واعياً لدوره في هذه الحقبة الزمنية من إمامته ، وفي هذه الأحوال السياسية المرتبكة ، وقد قام بوظيفته في الحفاظ على الإسلام الأصيل في ظل تلك الظروف بحكمة ووعي .

لقد مارس وظيفته في بناء قاعدته الشيعية وتربيتها وتعليمها وحمايتها ، ولما لم يكن بقدرة الإمام الاتصال بشيعته في ظل تلك الأحوال فقد سلك من أجل القيام بهذه الوظيفة طريقاً جديدة ، منها طريق المراسلة ، فكان طريق المراسلة بينه وبين قاعدته هو الطريق الأكثر ضماناً لإيصال تعليمات الإمام إلى وكلائه أولاً ثم إلى شيعة أهل البيت . وكانت أجوبة المسائل الشرعية والرد على الشبهات ومحاربة البدع ، و التوعية السياسية يتم أكثرها عن هذا الطريق .

ولكن الإمام (ع) كان يستفيد من بعض الفرص والمناسبات التي تتاح له بعلم السلطات الحاكمة من ممارسة وظيفته تجاه قاعدته خصوصاً وتجاه الأمة عموماً ، بالإجابة عن مسائل شرعية ، أو رد شبهة عن الإسلام أو محاربة بدعة ، أو وعظ الناس وإرشادهم . ويمكن القول أن شيعة أهل البيت في تلك الفترة كانوا أعلم الناس وأفقههم وأكثرهم التزاماً بالدين وأورعهم عن المحرمات ، فلم يذكر لنا التاريخ الذي يسير إلى جانب أعدائهم أن الشيعة زمن الإمام فسقوا أو سرقوا أو نهبوا أو أحلوا حراماً ، فكانوا لذلك شريحية اجتماعية فاعلة ومؤثرة في المجتمع . وليس صحيحاً القول أنهم كانوا في معزل عن الأمة ، ليس لهم دور فاعل فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن قيادة الإمام لشيعة أهل البيت كانت قيادة حكيمة وحازمة ومتنفذة ، وكان الشيعة مؤمنين بهذه القيادة ، ملتزمين بما تأمرهم به وتنهاهم عنه ، ولم يحدثنا التاريخ عن وجود خروج من قبل شيعة أهل البيت على قيادتهم ، وأما ما ذكرته بعض الكتب من أن أخا الإمام موسى بن محمد كان على خلاف معه ، وعلى اتصال بالمتوكل ، فهذا لا يعدو كونه تصرفاً شخصياً من رجل أثر الدنيا على الآخرة . إن بناء القاعدة الشيعية من أتباع أهل البيت وحمايتها والحفاظ عليها ليعُدَّ حفاظاً على الإسلام الأصيل .

وفيما يتصل بالحديث عن وظيفته (ع) ما ذكرته المصادر التي تحدثت عن سيرته من أن الإمام (ع) كان يحضر مجالس الخلفاء العباسيين الذين عاصروهم ، ويخرج في مواكبتهم . إن الإمام الهادي (ع) لم يكن يفعل ذلك باختياره ، بل فعل ذلك تحت إكراه هذا الخليفة أو ذاك وتهديدهم . ولم تذكر المصادر أن الإمام أبدى تنازلاً ، أو تسامحاً مع الظالمين ، أو فرطاً فيما يجب عليه باعتباره إماماً .

ويمكن أن نوجه فعله هذا إلى طبيعة الوظيفة التي يقوم بها في الحفاظ على الإسلام الأصيل في تلك الظروف الشديدة ، فهو باعتباره إماماً للأمة من الناحية الفكرية والفقهية

لم تذكر
المصادر أن
الإمام أبدى
تنازلاً، أو
تسامحاً مع
الظالمين، أو
فرط فيما
يجب عليه
باعتباره
إماماً.

عوز له أن يستثمر مجالسهم ومواكبتهم لتأكيد إمامته للأمة ، وفي تلك المصادر أكثر من مائة إلى أن الإمام كان يستثمر تلك المناسبات لتأكيد مرجعيته للأمة من الناحية الفكرية والفقهية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الإمام فعل ذلك ليسلم من بطش السلطة التي يغلب عليها الأعاجم ، وهم الذين كانوا من أشد أعداء أهل البيت ، وأكثرهم حقداً عليهم . كما سبقت الإشارة إلى ذلك . والإمام استطاع بهذا أن يسلم من محاولة القتل قبل أن يؤدي رسالته . وهو بهذا حافظ على سلسلة الإمامة حتى تكتمل بالإمام الثاني عشر .

وأيضاً قد قام الإمام (ع) في هذا الطرف السياسي الصعب بوظيفته في جعل جذوة لرفض والإنكار للواقع الفاسد المنحرف متقدة باستمرار في جسد الأمة . وفي جعل ضمير الأمة حياً تجري فيه باستمرار روح الغيرة الإسلامية في الدفاع عن الإسلام حين يتعرض إلى خطر التميع أو التشويه ، وتجري فيه روح التضحية وبذل الدماء حين تتعرض إرادة الأمة إلى المصادرة أو تتعرض عزتها وكرامتها إلى الانكسار والإهانة ، أو حين تسام الأمة خسفاً من قبل السلطة الفاشمة . وخير دليل على ذلك الثورات الشيعية التي حصلت في عصره .

الثورات الشيعية في عصره (ع) :

إنَّ الملاحظة التي يجب أن تُسجل هنا أن الأتراك الذين كانوا يحكمون الدولة العباسية خلال تلك الفترة كانوا على الخط المخالف للأئمة من أهل البيت ، وكانوا قساة عليهم وعلى شيعتهم ، وكان الخليفة إذا أراد إيذاء أحد الأئمة ، أو تصفية أحد المعارضين أرسل إليه الأعاجم من الأتراك وغيرهم الذين كانوا لا يراعون إماماً أو منتسباً إلى أهل بيت النبي (ص) ولا يوقرون كبيراً ولا يعطفون على صغير . وعلى الرغم من ذلك فقد حصلت ثورات عدة قام بها ثوار شيعية أكثرهم ينتمون إلى آل بيت النبي (ص) .

إنَّ التاريخ سجَّل في هذه الفترة أن يحيى بن عمر بن أبي الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ثار أيام الخليفة المستعين ، فوجَّه إليه المستعين رجلاً من الأتراك يقال له : كلكاتكين ... فقتل يحيى في المعركة التي دارت بينهما في موضع بين الكوفة وبغداد وحمل رأسه ورؤوس أصحابه إلى المستعين.^(١٥)

وخرج بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن أبي طالب سنة ٢٥٢ هـ فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان ، فاستباح الكوفة وهدمت دورها وأحرقت أسواقها .^(١٦)

وسجل التاريخ أيضاً أن عدة ثورات قام بها الشيعة في البلدان البعيدة عن عاصمة العباسيين أيام الإمام الهادي ضد الحكم العباسي ، ولكنها فشلت بسبب شدة الأتراك الذين تولوا قيادة الجيوش وقسوتهم في قمعها ، وكان منها ثورة محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان أيام المعتصم^(١٧) ، وثورة الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب

بطبرستان سنة ٢٥٠هـ ، وأحمد بن عيسى بن علي بن حسين الصغير ابن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب بالري في هذه السنة أيضاً^(١١٨) . ووجه المعتز مفلح وبتاجور إلى أهل قم فقتل منهم مقتلة عظيمة^(١١٩).

إنَّ أيَّ مُطلَّع على الحالة السياسية في عصر الإمام الهادي (ع) يدرك أنه لا يكتب لأي تحرك سياسي معارض شيعي أو غير شيعي النجاح في ظل تلك الأحوال على الرغم من ضعف موقف الخلفاء العباسيين ، ذلك بسبب هيمنة الأتراك وغيرهم من العناصر الأعجمية على مقاليد الأمور في الدولة ، واشتغالهم باستعمال شتى أساليب العنف مع الخصوم من أجل الاحتفاظ بمراكزهم . وهذا الأمر يفرض على الإمام أن لا يباشر أي عمل عسكري مسلح بنفسه ، وأن لا يقوم بالاصطدام المباشر مع السلطة الحاكمة في عصره . وهنا يرد التساؤل التالي : فلماذا إذاً حصل هذا العدد من الثورات التي انتهت فعلاً بالقضاء عليها وقتل القائمين بها ؟

للإجابة عن هذا التساؤل نعود إلى ما ذكرته أثناء الحديث عن وظيفة الأئمة (ع) بعد استشهاد الإمام الحسين (ع)، من أن إحدى الركائز الأساسية التي تقوم عليها وظيفة الأئمة (ع) بعد استشهاد الإمام الحسين (ع) هي إبقاء ضمير الأمة حياً وإمداده بروح التضحية للدفاع عن الإسلام، وإبقاء جذوة الرفض والإنكار للواقع المنحرف متقدة في جسدها، ويلزم هذا أن يبارك الأئمة (ع) كل من يريد الثورة والخروج على السلطان الظالم، ومن الجدير ذكره هنا أن الأئمة ابتداءً من الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) أوجدوا قنوات سرية للاتصال بأتباعهم من آل البيت الذين يفكرون بالثورة إنكاراً لظلم السلاطين ، ورفضاً للواقع الفاسد المنحرف ، وأنهم كانوا يوصلون _ عن طريق تلك القنوات _ مباركتهم للثائرين وأتباعهم ، واحتسابهم شهداء عند الله تعالى .

ولكن الباحث في سيرة الأئمة يجد أن السلطة العباسية المتجبرة تبنت خطة جديدة للتعامل مع الأئمة ابتداءً من إمامة محمد بن علي الجواد (ع) وهي إخضاع الإمام للرقابة التامة من قبل عيون السلطة ، وفرض الإقامة الجبرية عليه في أماكن قريبة من عاصمتها ، وعزله عن قاعدته الشيعية بتشديد المراقبة على أفرادها ومطاردتهم والتنكيل بهم وقتل الناشطين منهم . وقد ذكرتُ قبل قليل أن السلطة العباسية مارست تطبيق هذه الخطة على الإمام الهادي (ع) . وهذا يعني أن الأئمة محمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري واجهوا تلك الخطة بتنظيم قنوات الاتصال بقاعدتهم الشيعية بأساليب سرية يصعب على السلطة وعيونها كشفها ، وكان من تلك الأساليب اختيار وكلاء على درجة كبيرة من الوعي والتنظيم والسرية ، ويتمتعون بقدرة عظيمة على الظهور أمام الناس أشخاصاً من عامة الناس . وقد نظم الأئمة قنوات الاتصال بهؤلاء الوكلاء لتزويدهم بما يروونه ضرورياً لشيعتهم من تعليمات وأجوبة عن أسئلة شيعتهم وإيصال الأموال إلى من يستحقها منهم ، هذا بالإضافة إلى طريق المراسلة بينهم وبين قاعدتهم الشيعية . وقد وصلت بعض هذه الرسائل ، ولكن لا يستطيع الباحث أن يتوصل إلى تحديد كيفية المراسلة بين الطرفين ، وكل ما يمكن

لم يكتب لأي تحرك سياسي معارض شيعي أو غير شيعي النجاح في ظل تلك الأحوال على الرغم من ضعف موقف الخلفاء العباسيين، ذلك بسبب هيمنة الأتراك وغيرهم واشتغالهم باستعمال شتى أساليب العنف مع الخصوم من أجل الاحتفاظ بمراكزهم.

قول فيه أن تلك المراسلة كانت تتم بالبريد السري .

لقد ذكرتُ سابقاً أن إحدى الركائز الثلاث التي قامت عليها وظيفة الأئمة في الحفاظ على الإسلام الأصيل كانت الإبقاء على ضمير الأمة حياً ، ليرصد أي انحراف عن خط الإسلام ، فيقوم بالتصدي لذلك الانحراف ، والدفاع عن الإسلام الأصيل حين يتعرض بخطر التشويه والتزييف ، والإبقاء على إرادة الأمة حية ، لكي لاتتعرض إلى الإذلال ثم لمصادرة ، وأيضاً الإبقاء على جذوة الإنكار والرفض للظلم والواقع المنحرف متقدمة باستمرار في روح الأمة . فإذا علمنا ذلك فهل يمكن أن يشك أحد أن أي إمام يهمل ركيزة رئيسية من ركائز وظيفته الإلهية أو يفرط فيها ؟

ولا يحتاج المرء إلى تفكير ليجيب بالنفي عن هذا السؤال . وهذا يعني أن الإمام الهادي (ع) قد قام بهذه الركيزة من وظيفته الإلهية المتمثلة في الحفاظ على الإسلام الأصيل عن طريق القنوات السرية التي أصبحت في عصره أكثر تنظيماً وسرية . هذا ما يتعلق بوظيفة الإمام (ع) ، وأما ما يتعلق بالقاعدة الشيعية للإمام فقد أشرتُ سابقاً أن قيادة الإمام لشيعة كانت قيادة حكيمة وحازمة ومتفذة ، وأن شيعة كانوا مؤمنين بقيادته منقادين لها ، وكانوا على درجة جيدة من الوعي بالظروف السياسية بهم وبإمامهم . وبناء على هذه الحقائق فإن أي شخص من القاعدة الشيعية زمن الإمام الهادي ، في أي مكان في الأرض يجد له أتباعاً ويريد الثورة والخروج ضد السلطان الجائر ، لإعلان رفض الأمة وإنكارها للواقع المنحرف لابد أن يطلع إمام زمانه _ عن طريق القنوات السرية للاتصال بين الإمام وشيعته _ على ما يريد القيام به ، لكي يكون عمله شرعياً ومرضياً ، كما فعل الذين ثاروا زمن الأئمة السابقين . ولابد أن يوصل الإمام الهادي _ عن طريق تلك القنوات _ مباركته لذلك الشخص ، والدعاء له ، واحتسابه شهيداً عند الله تعالى ، كما كان آباؤه يفعلون مع مَنْ يريد إطلاعهم على ما يريد فعله من الثورة والخروج على السلطان الجائر .

ومما يدل على وجود ذلك الاتصال بين مَنْ يريد الثورة وبين الإمام أن الثورات التي ذكرتها سابقاً كانت ترفع شعار (الرضا من آل محمد) وهم يريدون بهذا الشعار الدعوة إلى الشخص المؤهل فكرياً ودينياً وسياسياً لقيادة الأمة من آل محمد (ص) . وهذا يعني أن أفضل شخص في تلك الفترة يتمتع بكل المزايا التي تؤهله لقيادة الأمة هو الإمام علي بن محمد الهادي ، فهو المقصود ب(الرضا من آل محمد) ولا أحد غيره .

* * *

- ٦ -

وفاته (ع) :

اتفقت المصادر التي تحدثت عن حياة الإمام الهادي (ع) على سنة وفاته . فذكرت أنه توفي سنة ٢٥٤ هـ بعد سنتين من خلافة المعتز (أبي عبد الله بن المتوكل) إذ بُيع للمعتز سنة ٢٥٢ هـ ، ولكن تلك المصادر اختلفت في تعيين اليوم والشهر الذي توفي فيه الإمام من

تلك السنة ، فذكر بعضها أن وفاته (ع) كانت لثلاث خلون من رجب ، واكتفى بعضها بذكر شهر رجب دون أن يعين يوماً منه . وذهب بعضها إلى أنه توفي يوم الأربعاء ، وقيل يوم الإثنين لثلاث بقين من جمادى الآخرة ، وقيل لأربع بقين من جمادى الآخرة ، وقال بعضها يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة . وسبب هذا الاختلاف - كما ذكرت سابقاً - التداخل والاختلاط بين المروي في تاريخ ولادته والمروي في تاريخ وفاته (ع).^(٥٠)

والراجح عندي أن وفاته (ع) كانت لثلاث بقين من جمادى الآخرة ، كما جاء في أكثر المصادر التاريخية ، فيكون عمره الشريف حين توفي إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً ، وهو مطابق لما جاء في أكثر الروايات .

ومن الغريب ما جاء في كتاب (وفيات الأئمة) اعتماداً على ما رواه إبراهيم بن هاشم القمي أن وفاته كانت آخر خلافة المعتمد ، ثم ذكر أن مدة إمامته كانت بقية ملك المعتمد ثم ملك الواثق ثم ملك المتوكل ثم ملك المنتصر ثم ملك المستعين ثم ملك المعتمد ثم ملك المعتمد ثمان سنين وستة أشهر ، وفي آخر ملكه استشهد ولي الله الهادي^(٥١) . وليس هذا بصحيح ، لأن المعتمد خلع من الخلافة سنة ٢٥٥ هـ وبويع للمهتدي محمد بن الواثق بالخلافة يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب من تلك السنة ، ثم خلع المهتدي بعد سنة وبويع للمعتمد أحمد بن المتوكل يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب سنة ٢٥٦ هـ.^(٥٢)

وكانت وفاته بمدينة سامراء ، وأشارت بعض المصادر إلى أنه توفي مسموماً بأمر المعتمد.^(٥٣) وصلى عليه ابنه أبو محمد الحسن العسكري ومعه بنو هاشم وجماعة من بني العباس منهم أبو أحمد بن المتوكل وجماعة من شيعة أهل البيت ، ثم شيعة الناس ومشى وراءه خلق كثير . وأنزل (ع) في الشارع وصلى به مرة ثانية أبو أحمد بن المتوكل ، فلما كثر الناس واجتمعوا وكثر بكاءهم وضجتهم أمر المعتمد أن يُرد إلى داره فدفن فيها.^(٥٤)

* * *

الإحالات :

- ١- ينظر: مستدرک سفینه البحار ج: 7/ 403 وفيه ذكر جميع المصادر التي ذكرت تاريخ ولادته ، وينظر وفيات الأئمة : 352 ، والدروس للشهيد الأول ج: 2/ 15
- ٢- ينظر : ينابيع المودة للقندوزي ج: 3/ 169 ، وسقط النجوم العوالي لعبد الملك العصامي 4/ 137 .
- ٣- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2/ 367
- ٤- ينظر : أئمتنا : 2/ 214 ، وصحاح الأخبار : 56
- ٥- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2/ 477 ، نقلاً عن المسعودي في تاريخه .
- ٦- تاريخ يعقوبي : 2/ 503
- ٧- سقط النجوم العوالي : 4/ 137
- ٨- تاريخ يعقوبي : 2/ 484
- ٩- ينظر : ينابيع المودة : 3/ 169 ، والبداية والنهاية : 11/ 15 ، وسيرة الأئمة الاثني عشر : 2/ 476 ، ودائرة المعارف الشيعية . لحسن الأمين .
- ١٠- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2/ 476
- ١١- كشف الغمة ، نقلاً عن الكافي .
- ١٢- ينظر : المصادر السابقة .

- ١٣- بحار الأنوار : 12 / 127
- ١٤- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2 / 436
- ١٥- ينظر : أثمتنا : 2 / 239 ، نقلاً عن مآثر الكبراء : 96 / 3
- ١٦- الصواعق المحرقة : 205
- ١٧- شذرات الذهب : 2 / 129
- ١٨- الاحتجاج للطبرسي : 2 / 258 ، وبحار الأنوار : 139 / 12
- ١٩- الاحتجاج : 2 / 251
- ٢٠- تذكرة الخواص : 203
- ٢١- أثمتنا : 2 / 239 ، نقلاً عن مآثر الكبراء : 2 / 102
- ٢٢- المصدر السابق ، نقلاً عن مآثر الكبراء .
- ٢٣- الأنوار البهية : 274
- ٢٤- وفيات الأئمة : 370 _ 371
- ٢٥- تاريخ يعقوبي : 2 / 472
- ٢٦- تاريخ الطبري : 7 / 322 _ 323
- ٢٧- المصدر نفسه : 7 / 330
- ٢٨- مختلف الشيعة ، للعلامة الحلي : 3 / 342
- ٢٩- تاريخ الطبري : 7 / 357 _ 358
- ٣٠- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2 / 463
- ٣١- ينظر : أثمتنا ، وبحار الأنوار ، وأنوار البهية ، وأعيان الشيعة
- ٣٢- أثمتنا : 2 / 226 ، نقلاً عن التوحيد : 224
- ٣٣- الدفعة الساكية : 3 / 133 ، والتوحيد : 109 ، والاحتجاج : 2 / 250
- ٣٤- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2 / 464 ، نقلاً عن رجال الكشي
- ٣٥- تاريخ الطبري : 7 / 318
- ٣٦- تاريخ يعقوبي : 2 / 496 _ 499
- ٣٧- أثمتنا : 2 / 222 ، نقلاً عن المناقب : 2 / 449
- ٣٨- أعلام الوري : 209 ، المجالس السنية : 5 / 442 ، نور الأبصار : 294 والإرشاد : 303
- ٣٩- كشف الغمة : 293
- ٤٠- وفيات الأعيان : 2 / 435 ، مرآة الجنان : 2 / 160 ، البداية والنهاية : 11 / 15
- ٤١- سيرة الأئمة الاثني عشر : 2 / 472 _ 473
- ٤٢- تاريخ يعقوبي : 2 / 492
- ٤٣- المصدر السابق : 2 / الصفحات من 472 _ 503
- ٤٤- تاريخ الطبري : 7 / 427 _ 429
- ٤٥- المصدر السابق : 7 / 453
- ٤٦- تاريخ يعقوبي : 2 / 471 _ 472
- ٤٧- تاريخ الطبري : 2 / 430 _ 432
- ٤٨- المصدر نفسه : 7 / 569
- ٤٩- تاريخ يعقوبي : 2 / 472 ، 485 ، 494 ، 496 ، 503
- ٥٠- ينظر : مستدرک سفينة البحار : 7 / 3 _ 4
- ٥١- وفيات الأئمة : 386 - 387
- ٥٢- تاريخ الطبري : 7 / 588
- ٥٣- صحاح الأخبار : 56
- ٥٤- تاريخ يعقوبي : 2 / 503